العلاقات السياسية بين المسلمين والبيزنطيين
فى عهد الخليفة
« هارون الواثق»

إعداد
الدكتورة/ سامية حامد
مدرس تاريخ العصور الوسطى

العلاقات السياسية بين المسلمين والبيزنطيين فى عهد الخليفة «هارون الواثق»

دكتورة/ سامية عامر - مدرس تاريخ العصور الوسطى

مقدمة:

تميزت العلاقات السياسة بين المسلمين والبيزنطيين فى عهد الخليفة هارون الواثق بشئ من الركود السياسى والمهادنة نظراً للظروف السيئة التى ألمت بالدولتين فقد كانت تلك الفترة هى فترة أفول نجم العباسيين وبداية زوال عصرهم الذهبى المتألق حيث هيمن الترك على مقاليد الحكم والسياسة واضطر الخليفة إلى الرضوخ إلى واقع الأمر، ومماألة الترك نظراً للدور العسكرى الهام الذى قام به هؤلاء ضد كثير من خصوم العباسيين وقد ترتب على هذا اضمحلال سطوة الخليفة وضعف شخصيته فى مواجهة الكثير من الاضطرابات التى ألمت بدولته. ورغم أن موضوع هذه الدراسة هو البحث فى العلاقات السياسية بين المسلمين والبيزنطيين إلا أننا رأينا ضرورة إلقاء مزيد من الضوء على الأحوال الداخلية فى الدولتين مما كان له أثر مباشر على نهج سياسة الهدنة والمصالحة بين الطرفين. فقد عانى الخليفة هارون الواثق من ثورة بعض الأقاليم ومن تسلط كتاب الدواوين فى دولته حيث هيمنوا على اقتصاد البلاد واستأثروا به، كما اصطدم هارون بعدد كبير من الأئمة بسبب موقفه المتشدد فى قضية خلق القرآن مما أدى إلى انشغاله بكل هذه الأعباء وأهمل عبء الجهاد ضد البيزنطيين فى الوقت

الذى قام فيه الأغالبة ومسلمو كريت بدور رائع متميز فى جهادهم ضد الروم.

أما الدولة البيزنطية فلم تكن أحسن حالاً من المسلمين فقد توفى الإمبراطور ثيوفيل وخلفه فى الحكم ابنه ميخائيل الثالث بوصاية أمه الإمبراطورة ثيودورا. وحين تولى ميخائيل III كان شخصية عابثة ماجنة ترك أمور السياسة والحكم للأوصياء وانغمس فى الملذات والمجون حتى لقب بالسكير وانعكس هذا بوضوح على دولته وتلاقت أهداف الدولتين فى عهد الصلح وتبادل الأسرى. ولم تكن تلك السياسة من صالح دولة العباسيين إذ ازدادت الأطماع الخارجية فيها وبدأ زوال طريق التألق والنجاح لتشهد تلك الخلافة العظيمة انقسام وانفصال عدد كبير من الدول عنها بالإضافة إلى تزايد خطورة المتربصتين بها، ومنهم أشرس غزاة العصور الوسطى وهم المغول على الأخضر واليابس وقضوا على عالم الفكر والسياسة والثقافة والاقتصاد بل على ينبوع الحضارة الإسلامية بوجه عام.

هذا وقد اختتمنا البحث ببعض الجوانب الشخصية للخليفة هارون الواثق. والأحداث التى أعقبت وفاته.

هارون الواثق

هو أبو جعفر هارون بن محمد بن المعتصم بن الرشيد الملقب بالواثق، قيل أنه ولد فى ١٠ شعبان ٢٠٩هـ / ٦ ديسمبر ٨٢٤م وأمه أم ولد يقال لها قراطيس وهى رومية الأصل.. عهد له أبوه المعتصم بولاية عهده، واعتمد عليه كثيراً فى تسيير أمور الخلافة بسبب انشغاله فى بناء مدينة سامراء.

وحول ميلاد الواثق اختلفت المصادر فمنهم من يقول أن ميلاده كان عام ٢٠٩هـ، ومنهم من أشار إلى أنه ولد عام ١٩٦هـ/ ٨١١م ورأى آخر يقول أنه ولد عام ١٨٦هـ/ ٨٠٢م [(١)]. رغم أن ابن دقماق قد أشار إلى أن ميلاده كان عام ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م إلا أنه عاد ونقض روايته الأولى حول تاريخ ميلاده حيث قال إنه توفى فى عام ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م وله من العمر ستة وثلاثون عامًا فلو كانت وفاته عن هذا العمر فسيكون ميلاده عام ١٩٦هـ/ ٨١١م وليس ٢٠٩هـ/ ٨٢٤م كما ذكر ابن دقماق وهذا ما أكده المسعودى والطبرى وابن الأثير.. وقد اتفق الجميع حول عام توليه الحكم أنه كان فى

---

(١) أم ولد لقب يطلق على الجارية التى تلد ولدًا وللمزيد انظر الطبرى : (ت ٣١٠هـ) : أبى جعفر بن محمد بن جرير الطبرى : تاريخ الدول والملوك، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٨؛ ج٥، ص ٢٧٣؛ ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) أبى الحسن على بن أبى الكرم، الكامل فى التاريخ، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٧، ج٦، ص ٧٣؛ المسعودى (ت ٣٤٦هـ) : أبى الحسن على بن الحسين على المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، بيروت، ج٤، ص ٦٥؛ ابن دقماق (ت٨٠٩هـ) : إبراهيم بن محمد أيدمر العلائى : الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين، تحقيق د/ عاشور، ص ١١٥، السيوطى (ت ٩١١هـ) : جلال الدين السيوطى، تاريخ الخلفاء، بيروت، ١٩٨٦، الطبعة الأولى ، ص ٣٨٥.

٢٢٧هـ وله من العمر واحد وثلاثون عامًا وتسعة أشهر [١].

تولى الواثق الحكم بعد وفاة والده المعتصم فى ١٨ ربيع أول سنة ٢٢٧هـ/ ٧ نوفمبر سنة ٨٤١م. وقيل أن ولايته كانت فى ٨ ربيع أول عام ٢٢٧هـ، وهناك روايات تشير إلى أن ولايته كانت فى ١٩ ربيع أول ٢٢٧ هـ. ٨ نوفمبر ٨٤١ [٢] عموماً لقد أجمعت المصادر على أن وفاة أبوه المعتصم كانت فى ١٨ ربيع أول ٢٢٧هـ / ٧نوفمبر ٨٤١م. وأنه تولى الحكم فى نفس يوم وفاة أبيه باعتباره ولى عهده [٣]. وقد توفيت أمه قراطيس بمدينة الحيرة[٤] فى نفس عام ولايته فى ٤ ذى القعدة عام ٢٢٧هـ/ ١٦ اغسطس ٨٤١م. ودفنت فى الكوفة فى دار داود عيسى.

تميز عهد هارون بزيادة نفوذ العنصر التركى فى مجريات الأحداث فقد عين أشناس وهو أحد القادة الأتراك سلطانًا [٥]. وألبسه وشاحين

(١) للمزيد انظر الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٩٠ -٢٩١؛ ابن الأثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٩٢؛ المسعودى : المصدر السابق، ج٤، ص ٦٥-٦٦.

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق، ج٦ ، ص ٧٣، السيوطى : المصدر السابق، ص ٣٨٥.

(٣) (ابن الاثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٢٢٧، ابن كثير (ت ٧٧٤) : البداية والنهاية الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٧، ج١٠، ص ٧٤٢، المسعودى : المصدر السابق، ج٤، ص ٦٥، محمد الخضرى بك : تاريخ الأمم الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٤٤٨.

(٤) الحيرة : مدينة تقع على تخوم العراق كان يسكنها شعب المناذرة خلفاء الفرس قبل الإسلام وقامت فيها حروب كثيرة من أشهرها موقعة ذى قار التى انتصر فيها المسلمون على الفرس، قيل إنها تبعد عن الكوفة ثلاثة أميال وللمزيد انظر ياقوت الحموى : (ت ٦٢٦هـ) : شهاب الدين أبى عبد الله، معجم البلدان، تحقيق فريد الجندى، بيروت : ١٩٩٠م، ج٢، ص ٣٧٦-٣٨٠.

(٥) كان الواثق يطلق على أشناس شيخ زمرة الأتراك والسلطان وللمزيد انظر عبد المنعم ماجد : العصر العباسى الأول القاهرة، ١٩٧٠، ص ٤٣٠.

مرصعين بالجواهر وأبقاه فى ولاية المغرب... وهو بهذا يُعّد أول حاكم عباسى يمنح هذا اللقب العظيم لقائد تركى ... ولم يصبح الأتراك يحملون ألقاباً عادية مثل الحاجب أو الوزير بل تعدّوها إلى السلطنة [١].

وفى هذا دلالة واضحة على فقدان هارون الواثق لكثير من نفوذه وسلطانه لحساب الترك إكراما لأمه وسيراً على نهج أبيه المعتصم [٢]. بل يلقى كثير من المؤرخين المسؤولية كاملة على المعتصم والواثق فى تغلغل العنصر التركى وتأثيره على مجريات السياسة العباسية، حيث عهد الواثق للقائد التركى إيتاخ بولاية خراسان والسند ودجلة [٣]. وهذا سيراً على سنة أبيه المعتصم رغم أنه عاد وعاتب إيتاج على استبداده بالسلطة [٤]. وقد تزايد عدد الأتراك فى عهده وبصورة ملموسة واعتمد عليهم الواثق في شتى مهام دولته وتدريجياً فقد الواثق مكانته وسلطانه ... حقيقة كان ظهور الأتراك على مسرح الأحداث له دور فعال فى إنهاء الخصومة بين العرب والفرس وإحداث التقارب بين العباسيين والعلويين الذين أظهورا ضيقًا من

---

(١) للمزيد عن هذه الألقاب وغيرها انظر القلقشندى (ت ٨٢١هـ) أحمد بن على القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء تحقيق د/ يوسف طويل، ١٤ جزء، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ج٩، ص ٢٧٠.

(٢) الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٧٣، إبراهيم ايوب (دكتور) : التاريخ العباسى السياسى والحضارى، الطبعة الأولى بيزوت، ١٩٨٩، ص ٩٧.

(٣) الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٧٤، ابن الأثير: المصدر السابق، ج٦، ص ٧٩، ابن كثير، المصدر السابق، ج١٠. ص ٧٤٥، السيوطى : المصدر السابق، ص ٣٨٥.

(٤) محمد جمال الدين سرور (دكتور) : تاريخ الحضارة الإسلامية فى المشرق ، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٥-٢٦ وأيضا ماجد : المرجع السابق، ص ٤٣٠.

هذا النفوذ التركى المتزايد فأدى ذلك فى النهاية إلى إضعاف الخلافة وتقليل قدرتها فى الهيمنة على مقاليد الحكم، وانسلاخ الدول والأقاليم عن سلطتها فظهرت الدولة الصفارية والسلمانية والغزنوية وغيرها فى المشرق والطولونية والأخشيدية ثم الفاطمية فى مصر والحمدانية فى الشام، فى الوقت الذى لم يقف طموح الأتراك عند حد بل امتد إلى الرغبة فى الهيمنة على مقاليد السلطة والحكم والجيش مبررين ذلك برغبتهم فى التصدى للروم والقضاء على الفتن والاضطرابات الداخلية فى عهد الواثق.

وفى الحقيقة عانى الواثق كثيراً من رد فعل العرب والفرس وتزايد كرههم للترك خاصة بعد أن حرمهم الواثق من كثير من الأرزاق والعطايا، وفضل عليهم الترك الأمر الذى أوصل كل فئة من هؤلاء إلى أن تعمل لحسابها فى الخفاء مما زاد الاضطرابات الداخلية وزاد من استبداد الترك بالسلطة لدرجة أنهم وقفوا موقفاً عدائيًا من الواثق ولم يبايعوا ابنه محمد بولاية العهد، بل عهدوا لأخيه المتوكل.

عمومًا فهذه السياسة القائمة على تفضيل الترك أضعفت الخلافة وهددت عروبة الدولة إذ لم يحرص الترك على تعلم العربية أو إتقانها مثلما فعل الفرس من قبل[1]. وإنما حرصوا على لغتهم وحافظوا عليها.

ولكن بنظرة محايدة على مسرح الأحداث نجد أن الواثق كان مجبراً على الوفاء للترك بسبب ما قدموه له ولوالده من قبل من خدمات فى المجال

(١) للمزيد انظر : محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق، ص ٢٧، أحمد الشامى (دكتور) الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الأول، ص ١٦٩- ١٧٠.

العسكرى خاصة يوم عموريه [١] فقد كان لهم دور بارز فى موقعة عموريه وحفظت لنا المصادر أسما . عظيمة ومميزة مثل أشناس والأفشين وإيتاخ [٢] فقد عاونوا المعتصم وأخلصوا له فى تلك الحملة ناهيك عن الدور الذى لعبه الأفشين فى القضاء على ثورة بابك الخرمى على عهد المأمون مما زاد من رصيدهم عند الواثق. وزاد أيضاً فى تطلعاتهم للاستئثار بالسلطة حتى لو تطلب هذا عقد تحالفات مع بعض المتمردين والخارجين على الدولة العباسية ولعل هذا هو الذى دعا المعتصم للتخلص نهائياً من الإفشين وعلى الرغم من هذا لم ييأس الترك بل حرصوا على الالتفاف حول الواثق ولم يبرحوا مكان إقامته فى سامراء ليظل كل منهم على مقربة من مركز السلطة وليتالوا منزلة طيبة من نفس هذا الخليفة الجديد . بل وصل بهم الأمر إلى أنهم كانوا يرسلون نواباً عنهم من الولاة إلى الأقاليم والولايات حتى لا يبرحوا العاصمة لما يمكن أن يترتب على ذلك من ضعف سلطانهم أواخر العصر العباسى الأول [٣]. وتزايدت سطوتهم فى الدولة حتى أعطوا لأنفسهم مما لأهل العقد والحل خاصة فى مسألة تعيين ولى عهد الواثق فقد رفضوا ابنه محمد ورشحوا أخاه المتوكل وذلك لأن أم المتوكل كانت تركية من خوارزم وليست عربية [٤].

---

(٨) عمورية : مدينة مقدسة لدى الروم بذلوا جهداً كبيراً فى الدفاع عنها ضد المسلمين فهى مسقط رأس الأسرة الحاكمة آنذاك وللمزيد انظر ياقوت الحموى : المصدر السابق، ج٤، ص ١٧٨

(٢) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٤٥

(٣) الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٧٣ - ٢٧٥. أحمد إبراهيم الشريف وآخر العالم الإسلامى فى العصر العباسى، الطبعة الخامسة، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٢١٨

(٤) المسعودى - المصدر السابق، ج٤، ص ٨٥، ابن كثير المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٥٧ - ٧٥٨. ماجد المرجع السابق، ص ٤٣

الاضطربات الداخلية وثورة بعض الأقاليم فى عهد هارون الواثق:

شهد عهد الواثق كثيرا من الاضطرابات والثورات أهمها ثورة عرب الجزيرة خاصة قبيلة بنى سليم من قيس عيلان[1]. الذين أحدثوا ذعرا وقلقا فى الطريق إلى المدينة المنورة حيث تسلطوا على الأسواق والأسعار وقتلوا الكثير من العرب عام ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م [2] مما أحدث كثيرا من الذعر والفوضى فى منطقة الحجاز وعلى الرغم من أن الواثق أرسل جيشا لقمعهم إلا أنه لم يتمكن من ردعهم تماما إذ استباحوا القرى وتحولوا إلى قطاع طرق وعبثوا بالأمن فى ربوع البلاد، فاضطر الواثق إلى إرسال جيش آخر بقيادة بغا الكبير (أبو موسى) وقائده طردوش فقاتل بنى سليم وأسر منهم عدداً كبيراً وأجبرهم على مصالحته بعد أن حبس الخطيرين منهم على الدولة وعاد بباقى الأسرى إلى المدينة وحبسهم عام ٢٣٠هـ[3].

كما حاربت جيوش الواثق قبيلة بنى مرة الذين تغلبوا على فدك وفى البداية فشل الواثق فى قمعهم لأنهم تفرقوا فى الصحارى وشكلوا خطراً جسيما على دولته إلا أنه تمكن فى النهاية من هزيمتهم كما تمكن من قمع قبيلة بنى نمير وذلك سنة ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م[4]. الذين كانوا قد عاثوا فى منطقة الحجاز فساداً كبيراً فكلف الواثق بغا الكبير بالسير لهم جهة اليمامة[5]....

(١) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٤٧؛ ماجد : المرجع السابق، ص ٤٣٢.

(٢) الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٧٨.

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٨١.

(٤) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٥٥؛ الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٨.

(٥) اليمامة : مأخوذة من اسم طائر يقال له اليمام، وهى مدينة بينها وبين البحرين ١٠ أيام، وهى معدودة من نجد وقاعدتها حجر وكان اسمها قديماً «جو» فسميت باليمامة ومنها منازل طسم وجديس وللمزيد عنها : انظر ياقوت الحموى : المصدر السابق، ج٥، ص ٥٠٥.

وقتل عددا كبيرا وأسر الآخرين ثم التقى مع بنى تميم، وكان جيشه يبلغ ألف فارس بينما كانوا هم فى ثلاثة آلاف فارس فجرت بينهم حروب كثيرة انتصر فى النهاية جيش هارون الواثق وتمكن من إعادة الأمن والاستقرار إلى ربوع البلاد. ويقول ابن كثير أن بُغا عاد إلى بغداد ومعه أعيان روساثهم فى القيد والأسر وكان معظمهم من أكابر تميم وسليم وكلاب ومرة وثعلبة وطى[1].

ولعل أخطر المشاكل التى واجهت الواثق كانت من جهة الأردن وكان سببها أبو حرب اليمانى المعروف بالمبرقع[2]. فقد كان مصدر قلق منذ عهد أبيه المعتصم وأحدث فتنة شديدة فى البلاد ... وقد فشل المعتصم فى استئصال شأفته رغم أنه أرسل إليه جيشا قوياً ضم مائة ألف مقاتل .. وقد تردد جيش المعتصم فى مهاجمته لكثرة عدد أتباعه[3]. ولما تولى الواثق وجه إليه جيشاً آخر بقيادة رجاء بن أيوب ومعه عدد من القواد الترك فأخمد فتنة المبرقع وقتل ما لا يقل عن ألف وخمسمائة رجل من طائفة القيسية، الذين زاد الصراع معهم واصطدامهم مع اليمنية وتمكن من التصدى لهم فى مرج

---

(١) الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٨؛ عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ٤٣٢.

(٢) سمى بهذا الاسم لأنه كان دائم التلثم بهذا البرقع ليخفى وجهه عن السلطان بعد أن أتهم بقتل أحد الحراس بجهة الأردن وتمكن من إشعال نار الفتنة فى كل منطقة فلسطين وأوهم الناس أنه السفيانى المنتظر للانتقام لبنى أمية من العباسيين وللمزيد انظر ابن الاثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٧٣؛ ابن كثير المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٤٠؛ حسن إبراهيم حسن : التاريخ السياسى والثقافى والاجتماعى، بيروت ، ١٩٦٤، ج٢، ص ٧٨.

(٣) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٤٠.

راهط ثم اتجه ابن أيوب بعد ذلك للمبرقع وتمكن من أسره ونقله إلى سامراء حيث قتل هناك فاستقرت الأوضاع فى الشام ثم قام الواثق بتعيين إيتاج والياً عليه ولكنه فضل الإقامة فى سامراء مثل غيره من الولاة الترك[1].

هارون الواثق وموقفه من كتاب الدواوين

حين تولى الواثق حكم البلاد كانت ذكرى نكبة البرامكة [2]. ماثلة أمام عينيه، وكان استبدادهم بالأمور المالية للبلاد ليس خافيا على أحد ... وقد تجدد فى عهده الكثير من الأقاويل حول إسراف كتاب الدواوين واستبدادهم بالأمور المالية وخاصة بعد أن رأى زيادة ثرواتهم وأملاكهم فجأة وشعر بخيانتهم وإسرافهم فىّ أمور الدولة.. فصادر أملاكهم ويقال إنه ضربهم ألف سوط ويقال أنه سجنهم وعذبهم ليعلنوا عن مصدر ثروتهم، ويحكى عن هارون الواثق أنه جلس ذات ليلة مع بعض سماره وسئل عن نكبة البرمكة فذكر أن جده هارون الرشيد كان قد أعجب بجارية فساوم سيدها فقال له أمير المؤمنين «... أنى أبيعها لك بمائة ألف دينار فاشتراها منه ثم أمر

---

(١) فازيليف : العرب والروم ، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة، مراجعة د. فؤاد حسين على ، بطرسبرج ١٩٠٠، ص ١٧٥. ابن الأثير : المصدر لسابق، ج٦، ص ٧٣، ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٤٨، ماجد : المرجع السابق، ص ٤٣٤.

(٢) أثيرت العديد من الأقاويل حول نكبة البرامكة ومنها قصة العباسة أخت هارون الرشيد، واستبدادهم بالمال والسلطة، وقبل أنهم كانوا يميلون لعادات مجوسية مثل إشعال البخور والنار فى المساجد إلى آخر الروايات، وحول أسباب نكبتهم بالتفصيل فى عهد هارون الرشيد انظر ابن كثير : المصدر لسابق، ج١٠، ص ٣٦٣، ٦٤٤ - ٦٤٥، على إبراهيم حسن : التاريخ الإسلامى العام، القاهرة، ١٩٧١، ص ٥٦٦.

يحيى ابن خالد بن برمك أن يرسل له المال فاعتل بأنها ليست عنده فتعجب الرشيد هل حقا أن بيت مالى خال فأرسل الرشيد إليه يؤنبه ويقول «أما فى بيت مالى مائة ألف دينار» ثم بدأ يتتبع أموال بيت ماله فوجد أن البرامكة قد استولوا عليه فأخذ يترقب تصرفاتهم ومصادر أملاكهم وبدأ التنكيل بهم [1]، هذا تسبب بالإضافة إلى العديد من الأسباب الأخرى عن نكبة البرامكة ... وأعجب الواثق بسياسة جده وقرر أن يسير على نهجه وترقب عماله ووجد أن أموالهم لا تتفق مع قيمة الأرزاق التى يحصلون عليها فاعتبرهم خونة وبطش بهم[2]. هم داخل الدواوين وكان هارون الواثق يردد دائما مقولة حفظها عن جده فى هذه المناسبة «إنما العاجز من لا يستبد»[3].

هارون الواثق وموقفه من مسألة خلق القرآن

لقد شارك الواثق أباه فى ميوله المذهبية وآرائه الفلسفية وتشدد فى نشر آرائه الخاصة بمسألة خلق القرآن مما أثار عليه مشاعر أهل بغداد الذين سخطوا عليه وتآمروا على قتله، فقد أمر الواثق أمير البصرة أن يمتحن الأئمة والمؤذنين فى مسألة خلق القرآن وهذا هو نهج أبيه من قبل ولكن أدى ذلك إلى إثارة مشاعر الناس ضده وكان أكثرهم ثورة أحمد بن نصر الخزاعى[4]. وهو من أهل الحديث وكان قائماً بالأمر بالمعروف والنهى

(١) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٤٨

(٢) ابن الأثير المصدر السابق، ج٦، ص ٧٩، محمد الخضرى المرجع السابق ص ٢٥٢

(٣) ابن الأثير نفس المصدر ص ٨، ابن كثير المصدر السابق، ص ٧٤٨

(٤) للمزيد عن شخصية أحمد بن نصر الخزاعى انظر ابن كثير المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٥

عن المذكر وساعده فى دعوته رجلان من أهل بغداد هما أبو هارون السراج وكان يدعو أهل الجانب الشرقى والآخر طالب ويدعو أهل الجانب الغربى[١].

وقد أمر الواثق بإلقاء القبض على أحمد بن نصر الخزاعى فأحضر مقيداً وسأله عن القرآن فقال له كلام الله وكان أحمد قد استقتل وتطيب [٢]. فقال له الواثق : أمخلوق هو ؟ قال هو كلام الله. فقال له : وماذا تقول فى ربك أتراه يوم القيامة؟ فقال: يا أمير المؤمنين قد جاءت الأخبار عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : «ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر لا تضامون فى رؤيته» فنحن على الخبر.

وقال تعالى «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» [٣]. فقال الواثق ويحك أيُرى كما يرى المحدود المجسم ؟ ويحويه مكان ؟ ويحصره الناظر؟ إنما كفرت برب صفته ما تقولون فيه. وكان الواثق متشدداً فى رأيه بخلق القرآن بدون دليل ولا برهان ولا سنة ولا قرآن[٤] وفى نفس الوقت الذى أصر فيه الخزاعى على أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق فى أشياء كثيرة[٥]. وقد أخذ الواثق رأى الفقهاء فى أمر أحمد الخزاعى فقالوا: له

---

(١) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٥٠، السيوطى : المصدر السابق، ص ٣٨٥، الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٣١.

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٨٧.

(٣) السيوطى : المصدر السابق، ص ٣٨٥، ابن الأثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٨٦، الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٣١.

(٤) ابن رسلان (ت ٧٧٨هـ) عباس بن مجاهد بن على بن يوسف بن عمر : نزهة العيون فى تاريخ الطوائف القرون، مخطوط بمكتبة جامعة الإسكندرية - رقم ١١٢٩ لوحة ٩ ب، بن الاثير: المصدر السابق، ج٦، ص ٨٦.

(٥) ابن كثير : المصدر السابق، ص ٧٥٠، عبد المنعم ماجد : المرجع السابق، ص ٤٢٤

حلال الضرب فدعا بالسيف وقال إذا قمت إليه فلا يقومن أحد معى فإنى أحتسب خطاى إلى هذا الكافر الذى يعبد ربا غير الذى نعبده ولا نعرفه بالصفة التى وصفه بها ثم أمر بالنطع[1]. فأجلس عليه وهو مقيد وضرب عنقه وسقط صريعا-ثم حمل بعد أن فصلت رأسه عن عنقه وحمل إلى الحظيرة التى صلب فيها بابك الحزمى[2]. ثم حملت رأسه إلى بغدد وظل أيامًا فى الجانب الشرقى وأياما فى الجانب الغربى وعنده الحرس ليلا ونهاراً وقد كتب على رأسه هذه رأس الكافر المشرك أحمد بن نصر الخزاعى ممن قتل على يد عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه حجة خلق القرآن ونفى التشبيه.

ويقال أنه عرض عليه التوبة، والرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح[3]. والجدير بالذكر أن مسألة خلق القرآن هذه كانت سببا فى

---

(١) النطع هو عبارة عن جلد ملتزقة بعظم الخليفاء فيها أثر كالخنزير وقيل النطاع هو يوم من أيام العرب . وربما المقصود به الخشبة التى توضع أسفل المشنقة فى وصفنا الحالى والمزيد انظر ابن منظور (ت ٧١١هـ) جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب دار المعارف بدون تاريخ، ج٦، ص ٤٤٦٠ - ٤٤٦١.

(٢) بابك الحزمى هو مؤسس الحركة الحزمية وهى حركة زندقة وإلحاد تنادى بتناسخ الأرواح من الحيوان إلى الإنسان وقد ظهرت فى عهد الأمين وله آراء خطيرة فى إشاعة اللذات وشيوع النساء والمزيد انظر عبد الرحمن العمرو (دكتور) : أثر الفرس السياسى ، الطبعة الأولى ١٩٧٨، ص ٢٧٠ - ٢٩٨.

(٣) يقال أن رأس الخزاعى ظلت معلقة سنتين إلى أن تول المتوكل فأنزلها ودفنها والمزيد انظر ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٥٢، السيوطى : المصدر السابق، ص ٣٨٦، ابن الأثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٢٣١، الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٣، ماجد : المرجع السابق، ص ٤٢٩.

معاقبة الإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلى المشهور وذلك فى عهد الخليفة المعتصم بالله لدرجة أنه ضرب بالسوط لرأيه فى هذه المسألة ورغم أن المعتصم قد خفف من موقفه تجاه هذه القضية إلا أن الواثق أعاد للأذهان تعنت بنى العباس مع غير القائلين بخلق القرآن مما زاد من كراهية الناس له خاصة بعد أن تتبع كل أنصار الخزاعى وسجنهم وقطع عنهم الأرزاق. وفى هذا الصدد يضيف أبو الفداء «أنه فى عهد الواثق لم يترك أحد حتى أخذ بمحنة خلق القرآن، فهرب الناس وملئت السجون، وحتى الذين افتداهم الواثق من أسارى المسلمين عند الروم امتحنوا فى ذلك. ومن قال بعدم خلق القرآن يترك للروم دون افتداء وامتدت المحنة إلى كافة الولايات بما فيها مصر حيث اضطهد الفقهاء فيها من أصحاب مالك والشافعى وكان يطوف رجل الشوارع وهو ينادى بخلق القرآن [1].

كانت هذه لمحة سريعة عن المشاكل التى واجهت الدولة العباسية فى عهد هارون الواثق والتى شغلته فترة من الزمن مما كان له أثر مباشر على العلاقات الخارجية مع بيزنطة.

---

(١) ابو الفداء ، ص ٣٨؛ ابن كثير، المصدر السابق، ج١٠، ص ٣٠٢؛ الطبرى: المصدر السابق، ص ٢٨٤؛ ابن الاثير : المصدر السابق، ص ٢٣١.

السياسة الخارجية لهارون الواثق

علاقته بالدولة البيزنطية

تميزت العلاقات السياسية بين الواثق والروم بالهدوء النسبى فلم تشر المصادر إلى أى غزوات قام بها بنو العباس ضد الدولة البيزنطية حيث يرجح المؤرخون أن هذه هى الفترة التى انتهت فيها فروسية بنى لعباس أو خفت حدتها، بل أن البعض يقول إن الواثق كان يميل إلى الروم باعتبار أن أمه قراطيس كانت رومية الأصل مما جعله يعزف عن معادتهم إكراماً لها، فى حين يرى البعض الآخر أن هذا يرجع إلى انشغال الخلافة العباسية فى مشاكلها الدخلية وما خيم عليها من جمود وتقاعس خاصة فى آسيا الصغرى. فى الوقت الذى لم تكن فيه الأمبراطورية البيزنطية أحسن حالاً من المسلمين فقد مات الإمبراطور ثيوفيل ٢٢٧هـ/ ٨٤٢م[١]. وورث الحكم ابنه الوحيد ميخائيل الثالث وكان طفلاً فى الثالثة من عمره وترك الوصاية لأمه الإمبراطورة الشابة ثيودورا[٢]، التى أعلنت سياسة دينية مناقضة تماماً

---

(١) Zonarae, J, Opera Omina, H.C.D. in partrologiac Craecae, Tomus, 135, Belgium pp. 52-54.

انظر أيضا : فازيليف : العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة، مراجعة/ فؤاد حسنين على طبعة دار الفكر العربى، بطرسبرج ١٩٠٠، ص ١٦٩.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٧٣؛ ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٤٢؛ انظر أيضا : أوهان : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د/ مصطفى طه بدر، دار الفكر العربى، ١٩٥٦؛ ص ١٦٥، والجدير بالذكر أنه فيما يتعلق باسم ثيودورا فقد اختلفت المصادر العربية فى اسمها فأحيانا تذكر ثيودورا أو تدوزة.

لسياسة زوجها. فقد قضت على الاضطهاد الديني وأعادت كل المنفيين من أماكن نفيهم وعزلت البطريرك يوحنا النحوى محطم الأصنام فى عهد ثيوفيل ولم يمض على وفاة ثيوفيل شهرٌ واحدٌ حتى عادت الأيقونات إلى حوائط جميع كنائس القسطنطينية. مما فتح الباب من جديد لحرب دينية لا تنقطع داخل البلاد[١]. ولكن هذا لا يمنع من وجود صور عديدة للاحتكاك العسكرى بين الروم والمسلمين [٢]. حيث قام الروم بمهاجمة جزيرة كريت أقرب المعاقل الإسلامية من حدود بيزنطة[٣]. ففى مارس ٨٤٣م/ ٢٢٨هـ قاد الوزير البيزنطى ثيوكتستوس حملة بحرية ضخمة لمهاجمة كريت وقد أراد ثيوكستوس من ورائها تحقيق مجد سياسى وعسكرى لنفسه أولاً. حيث تقدم فعلاً نحو كريت ولم يلق مقاومة تذكر[٤]. ونزل على شواطئ المدينة واحتل جزءاً من الجزيرة وأقام فيها إدارة بيزنطية تابعة له. وكادت أن تنجح خطته فى ابتلاع كريت لولا قيام أهل الجزيرة بخدعة لانقاذ مدينتهم إذ أشاعوا

---

(١) أومان : المرجع السابق، ص ١٦٥ - ١٦٦؛ محمود سعيد عمران (دكتور) معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، ١٩٨١، ص ١٣١؛ جوزيف نسيم يوسف (دكتور) : تاريخ الدولة البيزنطية ، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦، ص ١٤٢؛ أسد رستم : حرب فى الكمنائس ، بيروت، ١٩٥٨؛ ص ٥٨ - ٥٩؛ أحمد الشامى : المرجع السابق، ص ١٧٠؛ ماجد ، المرجع السابق، ص ٤٣٤.

(٢) Grenier, P. L'empire Byzantin, Paris, 1904, P. 162.

(٣) Baynes and Moss Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization , London, 1926, p. 20.

(٤) Monachus, G. Monachus, Vita Recentiorum Imperatorum , In theophanes cont. C. S.H. B, (-1828), p. 814; C also : Jenkins, R, Byzantium, the imperial Centuries, London, 1966, p. 157.

داخل كريت ووسط الجيش البيزنطى أن الإمبراطورة ثيودورا قد جعلت من أحد منافسى ثيوكتستوس شريكاً لها فى الحكم وأنها أبعدته متعمدة ليخلو لها الجو فأسرع ثيوكتستوس بالعودة إلى القسطنطينية[١]. مما أعطى الفرصة للمسلمين من تدمير أسطوله تماماً رغم انشغال أسطول كريت بحروبه فى بحر إيجة ضد السواحل والجزر البيزنطية [٢].

وفى الحقيقة فقد وقع عبء الجهاد ضد البيزنطيين على دولة الأغالبة[٣]، حيث تولى إبراهيم بن أحمد بن الأغلب مهمة الجهاد وجهز الجيوش والسرايا التى لم تتوقف طيلة عهده الذى امتد تسع عشرة سنة. ففى عهده فتحت مدينة هامة بجوار بلرم[٤] وهى مدينة مسينة أو مسينى [٥]

(١) Symeon Magistre Historia, Chronographia, In Theophanes Cont, C.S.H.B, ed. 1. Bekker, Bonn. 1838, pp. 1-484; Theophanes Cont, op. cit. p. 203; Monachus, op. Cit. pp.. 814-815; cf. Also, Fin Lay, History of the Byzantine Empire, London, 1906, p. 166; Bury, History of Eastern Roman Empire, London, 1912, p. 292' Foord, The Byzantine Empire, London, 1911, p. 231.

(٢) إبراهيم العدوى (دكتور) : الأساطيل العربية فى البحر المتوسط، القاهرة ، ١٩٥٧، ص ١٠٢؛ فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٢.

(٣) مؤسس هذه الدولة هو إبراهيم بن الأغلب على عهد الخليفة هارون الرشيد حيث أرسله إلى تونس لقمع ثورات البربر والأدارسة فاستولى عليها وأزال ملك العباسيين إلا اسم الخلافة وللمزيد انظر حسن إبراهيم : المرجع السابق، ج٢، ص ٢٩٦

(٤) بلرم : هى عظم مدن جزيرة صقلية فى بحر المغرب لها سور شاهق وبها العديد من الشوارع الضخمة الواسعة وبها عشرة مساجد وللمزيد انظر ياقوت الحموى:المصدر السابق،جـ١ ص٥٧٣.

(٥) مسينة : بلدة تقع على ساحل صقلية مما يلى الروم مقابل ريو وهى بلد فى القسطنطينية والواقف فى مسنى يرى ريو، قيل أن طولها ٣٩ درجة وعرضها ٣٨ وللمزيد انظر ياقوت الحموى : ج٤، ص ٤٤٦ انظر كذلك ابن خلدون العبر وديوان المبتدأ والخبر . ج٤، ص ٤٣١ دار الكتاب اللبنانى ١٩٦٨.

Measana عام ٢٢٨هـ/ ٨٤٣م وهى مدينة هامة بها ميناء يقع على مضيق مسينى فى رأس الجزيرة ويحيط بها الجبال جهة الغرب. وبداية غزو مسنى كان بحملة قام بها الفضل بن جعفر الهمدانى وكانت حملته برية وبحرية بهدف الاستيلاء على مسينى. وفعلاً نزل فى مرسى مسينى وغنم غنائم كثيرة[١]. كما استأمن أهل نابل[٢] وصاروا معه ولكنه لم يتمكن من أخذ مدينة نابل[٣] لقوتها، وفى الحقيقة تشير بعض المصادر إلى أن أهل نابل هم الذين سعوا لعقد تحالف مع الفضل الهمذانى، ورغم عدم وضوح الدوافع لهذا الحلف[٤] إلا أن الروايات العربية تشير إلى أن نجاح قوات الأغالبة فى دخول حدود مسينا هدد جنوب إيطاليا بأكمله وأجبر نابلى على طلب الصلح حيث كانت تعانى من الصرعات العنيفة مع جيرانها مما كان له أثر خطير فى طلب التحالف مع المسلمين بعد تخلصها من الخطر اللمباردى .. فى حين يذكر ابن الأثير أنهم اضطروا لعقد الصلح حيث كلف الفضل مجموعة كبيرة من رجاله استداروا خلف جبل مطل على نابلى وصعدوا إليه ونزلوا إلى المدينة وأهل البلد مشغولون بقتال جعفر فلما رأوا ذلك فتحوا أبواب المدينة

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٧٥؛ انظر أيضا.

(٢) Ostogosky, G, History of the Byzantine State, translated by Joan Hussery, Oxford, 1956, p. 195. Bury, op. cit., p. 313;

(٣) كانت مدينة نابلى شديدة الحصانة وهى تابعة لإيطاليا ويقيم فيها الشريف، ومنها كان يحكم صقلية فإذا وصل الشريف إليها يغادرها دوقها إلى صقلية وللمزيد عنها انظر : قسطنطين السابع إدارة الإمبراطورية البيزنطية، عرض وتحليل د/ محمود سعيد عمران، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٠١.

(٤) Bury. Op. Cit., P. 313;

انظر أيضا : ابراهيم العدوى : المرجع السابق، ص ٧٩ - ٨٠.

وعقدوا الصلح قهراً وليس رغبة منهم كما أشارت بعض الروايات[١].

بعد ذلك تقدم الفضل وحاصر مدينة مسكان واستولى عليها، كما هاجم الأغالبة مدينة شرة [٢]. فقاتله أهلها قتالاً شديداً، ولكن صمد المسلمون وهزموا الروم فيها وقتل منهم ما يزيد عن ١٠,٠٠٠ رجل واستشهد من المسلمين ثلاثة ويقول ابن الأثير أنها كانت مدينة قوية لم يكن بصقلية مثلها [٣].

وقد ظل الفضل بن جعفر يحكم خططه لإسقاط مسينى ففى عام ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م وصلته أنباء أن أهل تلك المدينة تحالفوا مع بطريرك صقلية لينصرهم على المسلمين فقال لهم : سأتى إليكم بجيوش والعلامة لوصولى أن توقد النار ثلاث ليال على الجبل الفلانى[٤]. فإذا وصلت تكاتفت جيوشكم معى ونزلنا على المسلمين بغتة، فلما علم الفضل أرسل من أوقد النار ثلاث ليال، وأعد خطة عسكرية لملاقاة أهل المدينة ليونيتتى[٥]. ومسينى الذين خرجوا للقتال فلم يجدوا سوى المسلمين وانتظروا وصول البطريرك واشتدت

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٧٥؛ انظر ايضا.
Ostrogosky, Op. Cit., P. 157-158.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٦٥.

(٣) Bury, Op. Cit., P. 157-158

وانظر ابن خلدون : العبر ، ج٤، ص ٤٣١.

(٤) فازيليف : العرب والروم، ص ١٨١.

(٥) مدينة هامة تقع فى القسم الشرقى من الجزيرة بين قسطانيا وسرقوصة للمزيد انظر فازيليف : العرب والروم، ص ١٨١.

الحرب وهزم أهل مسينى فرقة صغيرة من المسلمين وكانت خطة الفضل استدراك باقى جيوش مسينى، وخرج كل أهالى المدينة فطوقوا من قبل المسلمين وأعمل السيف فيهم. فطلبوا الأمان على أنفسهم. وأجابهم المسلمون إلى ذلك وسلموا المدينة[1]. وقد أقام المسلمون فترة بمدينة تسمى طارنت من أرض انكبردة[2]. وسكنوها. وكانت هذه ضربة قاصمة للإمبراطورة ثيودورا وسياستها الفاشلة ناهيك عن مؤامرات ودسائس القصر الإمبراطورى.

كما هاجم أسطول الأغالبة مدينة قلورية[3]. جنوب إيطاليا[4]. وتمكنوا من مهاجمة مراكز عديدة فيها واستولوا على كثير من المدن والحصون منها

---

(١) Bury, Op. Cit., PP. 306-307; CF. Also; Bay nes and Moss, Op. Cit., PP. 18-19.

وأيضا لويس ارشيبالد : القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) ترجمة أحمد محمد عيسى ، مراجعة محمد شفيق غبريال، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢١٤؛ أحمد رمضان (دكتور) : تاريخ فن القتال البحرى فى البحر المتوسط فى العصر الوسيط، مطبعة هيئة الآثار، ص ٢٣ وللمزيد عن مراحل الصراع بين أهل مسينى والفضل بن جعفر أنظر ابن الاثير : ج٦، ص ٧٥-٧٦.

(٢) انكبردة : بلاد واسعة للفرنج ما بين الأندلس والقسطنطينية على طرف بحر الخليج بمحاذاة جبل القلال وتمر على محاذاة ساحل المغرب شرقاً إلى أن تتصل ببلاد قلورية وللمزيد انظر ابن الاثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٧٦، فازيليف : العرب والروم : ص ١٨٠؛ إبراهيم العدوى : الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص ٩١. وانظر ابن خلدون : العبر المجلد الربع ص ٤٣١.

(٣) قلورية : جزيرة تقع شرقى صقلية دخلة فى البحر على شكل مستطيل من أشهر مدنها قسانة وقطر ونية وستانة وبها جنسيات مختلفة وللمزيد عنها انظر ياقوت : المصدر السابق، ج٤، ص ٤٤٦.

(٤) Bury, Op. Cit., P. 316.

بارى [1] Barium. وكانوا قد أغاروا عليها من قبل وأعطت لهم القدرة على التحكم فى مدخل بحر الأدرياتيك[2]. أو ما يسميه العرب بخليج البنادقة نسبة إلى مدينة البندقية. وقد حاول البنادقة إيقاف هذا الزحف فاستعانوا بالروم[3]. وأغاروا على سفن الأغالبة ودارت معركة حاسمة انتصر فيها الجيش العربي على جيش الروم والبنادقة وهلك الكثيرون.

ورغم أنه قد سبق وسلم له أهل مدينة نابلى[4]. إلا أنهم سرعان ما أعلنوا التمرد على المسلمين بسبب استخدام سواحلهم كقواعد لأسطولهم الأمر الذى دفع بنابلى إلى التحالف مع باقى المدن الإيطالية المجاورة وكونوا أسطولا ضخما لمقاومة خطر المسلمين[5]. فلم يطل خضوع أهل نابلى للمسلمين بسبب ذلك الحلف العسكرى الضخم الذى أجبرهم على التخلى عن مواقعهم بسواحل المدينة.

وفى عام ٨٤٦م/ ٢٣١هـ أغار الأغالبة على مدينة روم التى كانت تتمتع بحصانة شديدة[6]. وكان يحيط بها عشرة أبواب ضخمة من الرخام

---

(١) Bury, Op. Cit., PP. 313- 316.

(٢) أشار فازيليف إلى تردى أحوال الإمبراطورية وفشل ثيودورا فى إنقاذ الموقف ضد عرب صقلية مما دفعهم إلى الصلح والمهادنة مع المسلمين انظر فازيليف : العرب والروم، ص ١٣٥. وواصل الأغالبة اغاراتهم على قلورية وما حولها انظر ابن خلدون : العبر : المجلد الرابع ص ٤٣٣.

(٣) أشار بيورى إلى عقد أحلاف عسكرية بين البنادقة والروم منذ أمد بعيد وللمزيد انظر : Bury, Op. Cit., PP. 325-326.

(٤) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٨٨.

(٥) فليب حتى : العرب تاريخ موجز، بيروت، ١٩٤٦، ص ٢٠٢؛ فازليف: العرب والرون، ص ١٨٥.

(٦) Foord, Op. Cit., P. 231.

الأبيض وتعلوها الأعمدة ويكثر فيها الكنائس[١]. وأشهرها كنيسة طولها ألف ذراع فى خمسمائة وعرضها مائتى ذراع ويرجح أنها الفاتيكان مركز البابوية ويوجد بها قبر الحواريين بطرس San Peter وبولس San Pools ويقال أنهما مدفونان فى أجران من الرخام الأبيض بحيث يراهم الناس[٢]. وتشير المصادر إلى أن الأغالبة فى غزوهم لروما اتجهوا أولا نحو سردينيا[٣]. وجعلوا منها قاعدة عسكرية دائمة لهم. ومنها اتجهوا شمالاً بحذاء الساحل الإيطالى واكتسحوا فى طريقهم عددا من الموانى الهامة ودخل أسطولهم نهر التيبر الذى يشق روما ويسمى أيضا نهر رومية ويطلق عليه فى بعض المصادر نهر قسطنطين[٤]. وتشير بعض الروايات إلى أن العرب دخلوا روما نفسها وأحرقوا المدينة ونهبوا ذخائرها[٥]. وعبثوا بقبر القديس بطرس بولس وقبور البابوات وأثاروا الذعر فى المدينة[٦]. ويشار أيضا إلى أن العرب قاموا بحملة أخرى أكثر إعداداً وتنظيما ونزلوا فى

---

(١) Bury, Op. Cit., P.314.

(٢) Bury, Op. Cit., P.314.

انظر : أيضا فازليف : العرب والروم، ص ١٨٥.

(٣) سردينيا جزيرة كبيرة فى بحر المغرب أكبر من صقلية وأقريطش غزاها المسلمون وملكوها سنة ٩٢هـ واستفاد منها الاغالبة فى غزواتهم وهى الآن بيد الفرنج وقيل أن سردينيا مدينة أخرى داخل صقلية وللمزيد انظر ياقوت : المصدر السابق، ج٣، ص٢٣٦.

(٤) Decline, 6, pp. 42-45.

وأيضا فازليف : العرب والروم ، ص ١٨٥.

(٥) Foord, Op. Cit., P. 231.

(٦) Bury, Op. Cit., P.315.

ميناء أوستي Ostia قرب روما[١]. حيث التقى أسطولهم بأسطول الروم. ويقال أن جنوا وبيزا والبندقية وقفت إلى جانب البابا هذه المرة. حيث كان هذا مقدمة لأحلاف عسكرية عقدتها هذه المدن مع الإمبراطورية أيضا[٢].

وقد كان من سوء حظ المسلمين أن هبت عاصفة قوية دمرت بعض مراكب العرب فهزموا واضطروا إلى الانسحاب[٣]. وقد بالغ أهل روما فى الاحتفال بانتصارهم على العرب فى هذه الموقعة لدرجة أنهم قاموا بعمل احتفال ضخم للقديسين علقوا فيه أسلحة العرب حول المذبح[٤]. وصورت هذه الأحداق فى لوحة معلقة فى كنيسة الفاتيكان بريشة الفنان الايطالى رفاييلو ورغم هذا فلم يأمن الروم خطورة العرب واستعدادهم لمعاودة الكرة رغم الهزيمة فتشير المصادر إلى أن البابا يوحنا الثامنJohn VIII[٥] . أراد أن يبعد العرب نهائياً عن روما فاضطر إلى الالتزام بدفع جزية لهم لمدة عامين[٦].

---

(١) عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى؛ بيروت، ١٩٦٦، ص ١٠٣.

(٢) Pstrogorsky, Op. Cit., P. 196; Bury, Op. Cit., PP. 315; Foord, op. Cit., P. 231.

انظر ايضا فازليف : العرب والروم، ص ١٨٥.

(٣) ارشيبالد لويس : القوى البحرية، ص ٢١٦؛ فليب حتى : العرب تاريخ موجز، ص ٢٠٢.

(٤) Bury, Op. Cit., PP.315-316.

انظر أيضا فازليف : العرب والروم، ص ١٨٥.

(٥) Jenkins, Op. Cit., P, p. 174.

(٦) فليب حتى : العرب تاريخ موجز ، ص ٢٠٢ انظر ايضا :

Ency de l'Isl ltd, t4, p . 415.

فى نفس الوقت الذى حاولت فيه بيزنطة استرداد جزيرة صقلية فأرسلت حملة عسكرية ضخمة أسندت قيادتها إلى ثيوكتستوس[١]. الذى لم يثبت جدارته من قبل مما أثار تساؤلات عدة فقد سبق وأخفق فى حملته الأولى ضد كريت عام ٨٤٣م/ ٢٢٨هـ[٢]. فما الداعى لتكليفه بهذه الحملة.

فمن الغريب أن ثيودورا وضعت ثقتها الكبيرة فيه من جديد دون غيره من رجال البلاط ذو الكفاءة الأعلى فى سجلهم العسكرى أمثال مانويل الذى كان له شهرة عسكرية عظيمة على عهد الإمبراطور ثيوفيل، وقد وافق ثيوكتستوس على الفور على أمل تحقيق مجد شخصى عجز عن تحقيقه فى حملته الأولى[٣]. وليحقق رغبة ثيودورا فى انتزاع أى مكاسب عسكرية على حساب المسلمين[٤].

عموماً لقد استعدت ثيودورا لتجهيز جيوش ثيوكتستوس فى الوقت الذى كان فيه المسلمين قد كثفوا من غاراتهم على أراضى بيزنطة حتى

---

(١) Symeon, Op. Cit., P. 654.
وأيضا فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٢.

(٢) Jenkins, Op. Cit., P. 157.
وانظر ايضا ابن خلدون : البر المجلد الرابع ص ٤٢٢ – ٤٢٣.

(٣) Ostrogorsky, op. cit. , p. 157.
انظر أيضاً فازيليف : العرب والروم ، ص ١٧٢.

(٤) Symeon, op. cit., p. 654.
وأيضاً فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٣.

(٥) Symeon, op. cit., p. 654, cf also, Ostrogorsky, op. cit., p. 196.
وأيضاً فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٣.

وصلوا بالقرب من موروبوتامون Mouropotomon عند مدخل البسفور(٥). وهناك أدركهم ثيوكتستوس بقواته واشتبك معهم وتمكنت الجيوش الإسلامية بقيادة عمر بن عبد الله الأقطع من إنزال هزيمة ساحقة بثيوكتستوس (١). فهلك كثير من جند الروم وفر البعض الآخر ومنهم من انضم إلى جيوش المسلمين(٢).

وهكذا فشلت تلك المحاولة البيزنطية للثأر من المسلمين نتيجة ضرباتهم المتلاحقة للجبهة الشرقية للإمبراطورية(٣). وقد حاول بعض المؤرخين محو عار تلك الهزيمة عن ثيوكتستوس وإلقاء اللوم على عاتق برداس شقيق ثيودورا(٤). رغم أن برداس لم يشترك فى حملة بيزنطة فى موربوتامون.. وقد حدد المؤرخون ذلك الاتهام فى أن بردس هو الذى حرض جند البيزنطيين على الفرار للمعسكر الإسلامى. ومما أكد هذا الاتهام أن برداس سارع بمغادرة العاصمة بعد توجيه اللوم إليه دون أن يحاول تبرئة نفسه أمام شقيقته ثيودورا(٥). بل الأخطر من ذلك أن أهم معاونى برداس ويدعى

---

(١) Brehier, (L) vei et Mort de Byzance, Paris, 1969, p. 113, Foord, op. cit., p. 232; Ostrogorsky, op. cit., p. 196.

(٢) Symeon, op. cit., p. 654.

وأيضاً فازيليف : ص ١٧٤.

(٣) Jenkins, op. cit., p. 159.

(٤) أومان : المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٥) Symeon, op. cit., p. 654, cf also, Ostrogorsky, op. cit.,p. 196, Jenkins, op. cit., p. 159.

وأيضا : فازيليف : العرب والروم ، ص ١٧٤.

ثيوفانس الفرغانى Theophanes Farghana كانت له اليد الطولى فى المؤامرة التى أطاحت بثيوكتستوس بعد ذلك[١].

ومما يؤيد ذلك أن ثيوكتستوس كانت له عدة محاولات من قبل للإطاحة ببرداس والحد من سلطانه بالقصر خاصة حين أصبح زميلاً لشقيقته ثيودورا فى الوصاية[٢] على العرش وفى هذا الصدد ليس من المستبعد أن يكون لبرداس نفس دور الخديعة الذى لعبه ضد ثيوكتستوس أثناء وجوده فى جزيرة كريت عام ٨٤٣م[٣] / ٢٢٨هـ.. فقد أسرع ثيوكتستوس بالعودة إلى العاصمة خوفاً من مكائد برداس له[٤]؛ كأن الخديعة والدسيسة كانت سجالاً بين برداس وثيوكتستوس منذ أمد بعيد.

عموماً فقد استمرت المناوشات بين المسلمين والروم، وقد شعرت ثيودورا بعدم قدرتها على مواجهة المحاولات الإسلامية الدائمة للنيل من حدود بيزنطة خاصة وأن الإمبراطور ميخائيل الثالث حتى بعد بلوغه سن الرشد لم يكن الشخصية القوية التى يمكن أن تنهض بالقوة الدفاعية لبيزنطة فقد ظل غارقاً فى اللهو والسكر والمجون ولولا أن الدولة كانت

---

(١) Diaconi Leonis, Historia in Patrologiae Graecae, Tomus, 117, Belgium, P. 840.

(٢) C.M.H., Vol. IV. I., p. 108.

وأيضا أيمان : المرجع السابق، ص ١٦٦.

(٣) فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٤.

(٤) Bury, Op. Cit., p. 238; Jenkins, op. cit., p. 155, Ostrogorsky, op. cit., p. 196.

منظمة تنظيما دقيقاً لتحطمت حكومة الإمبراطورة أمام العربدة المبالغ فيها من قبل ميخائيل الثالث الذى بدا وقد فقد توازنه وأسلم زمام الأمور إلى صديقه بازيل المقدونى خاصة بعد أن تخلص من خاله برداس بأن ذبحه لكى يحكم منفرداً ولكن دون جدوى[١].

ويلاحظ أن البيزنطيين قد اعترفوا أمام أنفسهم بعدم قدرتهم على مواجهة المسلمين سواء على الجبهة الشرقية مع الخلافة العباسية أو مع مسلمى كريت وصقلية باعتبارهم الجانب الأضعف حيث لقوا هزائم متوالية على أيدى المسلمين فتيقنوا أنهم بحاجة إلى تدعيم دفاعاتهم فى هذه المناطق. ورغم هذا فقد استمرت حالة التوتر قائمة بين الجانبين وتمثلت فى الغارات المتبادلة صيفاً وشتاءً وراح ضحيتها كثير من المحاربين مما دعا إلى تهدئة الأحوال وإزالة التوتر والتقاط الأنفاس لكسب جولات عسكرية أخرى. فى الوقت الذى كان فيه الخليفة هارون الواثق يؤثر الهدوء والعزلة ولم يكن راضياً عن سياسة الأغالبة ضد بيزنطة وليس له سلطة فعلية عليهم لوقف غاراتهم. فانغمس هارون فى مشاكله الداخلية[٢] وأسبابها العديدة التى استعرضنا آثارها فى بداية هذا البحث. ويبدو أن الواثق قد قرر وقف أى نشاط عسكرى من جهته تجاه بيزنطة لدرجة أنه عزل واليه على الثغور والعواصم وهو أحمد بن سعيد الباهلى[٣] بسبب خروجه فى شاتية ضد

---

(١) Jenkins, op. cit., p. 157.

وأيضا أومان : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٦٦.

(٢) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٤٥؛ ابن الاثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٨١؛ ماجد : المرجع السابق، ص ٤٢٨ - ٤٢٩.

(٣) Ostrogorsky, op. cit., p. 196; Jenkkins, op. cit., pp. 158-159.

وأيضا عبد العزيز سالم (دكتور) : العصر العباسى الأول ، الإسكندرية، ١٣٩٨، ص ٢٣٩.

الروم وتصدى له أحد بطارقة الروم ورغم أن عدداً من سفنه قد غرق فى نهر البذندون[1] بسبب العواصف الشديدة والثلوج، إلا أنه غنم غنائم كثيرة منهم وعاد بباقى جيشه فرد عليه الواثق بعزله وعين مكانه نصر بن حمزة الخزاعى[2].

ويرجع عدد من المؤرخين أن الواثق لم تكن تنقصه الكفاءة العسكرية ليخوض الجهاد ضد البيزنطيين ولكن أصبح شغله الشاغل ذلك النفوذ التركى المتزايد داخل الخلافة [3]. فلم يشأ أن يزيد الطين بلة بعبء جديد من الصراع الخارجى وصرف النظر نهائياً عن معاداة الروم وقرر فتح باب المفاوضات وتبادل الأسرى.

وفى هذا الصدد يشير بعض المؤرخين المحدثين أن ثيودورا هى التى عرضت عقد هدنة وصلح بين الطرفين يتم فيه تبادل الأسرى[4]. فى حين يرى البعض الآخر كما سبق القول أن الظروف التى ألمت بالخلافة هى التى أجبرت الواثق على طلب الهدنة. فى حين يرى فريق ثالث أن طول الصرع

---

(١) البذندون : بفتحتين وسكون النون والدال مهملة وواو ساكنة هى قرية بينها وبين طرسوس يوم واحد مات فيها الخليفة المأمون ونقل ودفن فى طرسوس وللمزيد انظر ياقوت : المصدر السابق، ج١، ص ٤٣٠.

(٢) الشامى : المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٣) Bury, op. cit., pp. 315 - 316.

(٤) Bury, op. cit., p. 274; Ostrogorsky, op. cit., p. 196; Foord, op. cit., p232

وأيضا فازيليف : العرب والروم : ص ١٧٥.

وتزايد عدد الضحايا والأسرى أوجد رغبة قوية لدى الطرفين على وقف دمار الحرب على الحدود[١]. ناهيك عن الالتزامات المالية الضخمة التى كان يدفعها الطرفان من جراء هذه الحروب[٢]. فى حين يرى الكثيرون أن أضرار الحروب كانت أوضح على بيزنطة منها على الجانب الإسلامى بل يرى البعض أن مشاكل الواثق لم تكن من الخطورة والقوة ولعل ذلك يفسر ويؤكد أن بيزنطة هى التى كانت بادئة بطلب الهدنة وتبادل الأسرى.

أما عملية تبادل الأسرى فقد كانت تسير ضمن خطة وقواعد محكمة تبدأ بسفارات يشترك فيها ولاة الثغور والمناطق الأكثر عرضة للحرب فإذا نجحت تلك المفاوضات كانت تتم عملية الفداء وتبادل الأسرى[٣]. وفى الحقيقة فإن عملية تبادل الإسرى لم تكن جديدة العهد على تاريخ الخلافة العباسية فقد سبق ذلك أكثر من فداء للأسرى ولكن جميعها كانت فى شكل هدنة مؤقتة سرعان ما تشتعل بعدها الحرب أما الفداء فى عهد الواثق فلم يعقبه حرب بعده[٤]. عموما لقد بدأت مراسم تبادل الأسرى فى ١٠ محرم

---

(١) Finlay, op. cit., p. 154.

وكذلك إبراهيم العدوى : الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص ٦٧.

(٢) Vasiliev, A, History of the Byzantine Empire, Medison, 1986, pp.273-274

(٣) Bury, op. cit., pp.234-275; Ostrogorsky, op. cit., p.196.

(٤) تشير المصادر إلى أن أول فداء للأسرى كان عام ١٣٩هـ على عهد الخليفة أبو جعفر المنصور ولكن أعقب كل فداء حروب عديدة بين الطرفين ما عدا عهد هارون الواثق للمزيد انظر الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٥؛ ماجد : العصر العباسى الأول، ص ٤٣٢.

عام ٢٣١هـ/ ١٦ سبتمبر ٨٤٥م[١]. وقد ذكرت المصادر الإسلامية تفاصيل هذا الفداء وشروطه. فقد أورد اليعقوبى والطبرى أن البيزنطيين كانوا هم البادئين بإرسال سفارة إلى هارون الواثق بتكليف من الإمبراطور ميخائيل III وطلب إحلال السلام محل الحرب والتفاوض بشأن تبادل الأسرى وقد رحب الواثق على الفور[٢]. فقد أرسل سفيره أحمد بن قحطبة[٣]. إلى الإمبراطور البيزنطى لمعرفة مدى استعداد بيزنطة لتنفيذ هذا الفداء، والتعرف على العدد الحقيقى للأسرى وقد اتضح له أن عددهم حوالى ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة امرأة وصبى وتم الاتفاق بين الجانبين على إجراء عملية الفداء عند نهر اللامس[٤]. حيث تجهز رجل من عند هارون وهو حفيد مسلم بن قتيبة وكان يسمى (الواثق أحمد) ومعه أحد الأتراك وهو الحضى خاقان الخادم[٥]. فى حين أشرف على عملية الفداء من الجانب البيزنطى

---

(١) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٤٥؛ ابن الاثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٨٨؛ محمود سعيد عمران : المرجع السابق، ص ١٣١.

(٢) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، ج٣٠، ص ٢٠٧ك الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٣) الطبرى : المصدر السابق، ج٩، ص ١٤٢. ايضا.

Bury, op. cit.,p. 275.

(٤) نهر اللامس : هى قرية على شط بحر الروم من ناحية ثغر طرسوس تم عليه الفداء وكان الروم يقدمون فى البحر فيكونون فى سفنهم ويقع الفداء. انظر ياقوت الحموى: المصدر السابق، ج٥، ص٩؛ فازليف : العرب والروم، ص ١٧٧. انظر أيضا :

Ostrogorsky, Op. cit., p. 196.

(٥) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، ج٣، ص ٢٠٧؛ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص ٢٨٦؛ المسعودى: المصدر السابق، ج٤، ص ٦٥.

قائدان هما أنقاس ولستوس [١]. ويقال أن عدد المسلمين كان من الضخامة بحيث قلق المبعوثان البيزنطيان فطلبا عقد هدنة مع خاقان الخادم مدتها أربعين يوماً بصورة تكفي لإرجاع الأسرى إلى بلادهم[٢]. وفي ١٦ سبتمبر ٨٤٥م/ ١٠ محرم ٢٣١هـ، وهو يوم عاشوراء كما ذكر الطبري وابن الأثير[٣]، بدأت عملية الفداء بإظهار حسن النوايا حيث أطلق البيزنطيون سراح عبد الله الطرطوسي وكان من أشراف طرطوس وأسره البيزنطيون في إحدى غزواته منذ ثلاثين عاما على أراضيهم فكانت عودته سليما ومعززا إلى الخليفة هارون لها رد فعل طيب على الجانبين كما تبع ذلك إطلاق سراح عدد كبير من وجوه الأسرى المسلمين[٤]. وقد انفرد الطبري بذكر هذه الرواية بإسهاب من بين جملة المصادر ولم تذكر التفاصيل في أي من المصادر البيزنطية. ويشير فازيليف أن المسلمين وقفوا على الجانب الشرقي للنهر بينما وقف البيزنطيون على الجانب الغربي وفجأة ظهرت خلافات حادة بين الطرفين[٥]. حيث رفض الروم فداء العجزة من النساء والرجال أو فداء الأطفال[٦]. وكاد أن يفشل الاتفاق واستمر الخلاف أياماً إلى أن اتفقوا على

---

(١) Ostrogorsky, op. cit., p. 196; Bury, op. cit., p. 276.
انظر أيضا فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٦.

(٢) فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٧؛ الطبري المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٦.

(٣) الطبري : نفسه ، ص ٢٨٧؛ ابن الاثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٨٨؛ ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٥٤ – ٧٥٥؛ عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٤) فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٧.

(٥) Ostrogorsky, op. cit., p. 196.

(٦) فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٧؛ وأيضا
Bury, op. cit., p. 279' Finlay, op. cit., p. 154.

فداء رجل برجل[١]. أو نفس بنفس دون النظر للسن[٢]. وقد كان عدد أسرى المسلمين ضخماً لدرجة أن الواثق أمر بشراء من يباع فى بغداد والرقة من العبيد الروم فلم يكفى ذلك، فلم يرى الخليفة إلا أن يخرج كل من عنده من نساء الروم فى بلاطه الخاص حتى تتقارب أعداد أسراه مع أسرى الروم[٣]. وإلى أن أكتمل العدد وتساوى بين الطرفين يشير الطبرى إلى أن الواثق أمر بتكوين جماعة من يحيى بن أدم الكرخى البغدادى وجعفر بن الحذاء وطالب ابن داود لامتحان الناس فى مسألة خلق القرآن فمن نفى قدم القرآن ورؤية الله فى الآخرة افتدى على الفور ويوزع عليهم أموال فى الحال وقيل أنه كان يمنح كل أسير عند الفداء ديناراً، أما من لا يرفض نفى رؤية الله وقدم القرآن كان يترك للروم ولا يفتدى[٤].

وقد ذكر المسعودى[٥]. فى مروج الذهب أنهم كانوا كثيرين. حيث بلغ عدد من افتدى من المسلمين أربعة آلاف وخمسمائة شخص[٦]. وكانت

---

(١) فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٧.

(٢) الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٨٧.

(٣) فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٧.

(٤) الطبرى : المصدر السابق، ج٥ ، ص ٨٨؛ فازيليف : العرب والروم؛ ابن الاثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٨٨ –٨٩.

(٥) المسعودى : مروج الذهب، ج٤، ص ٦٥، ابن الاثير : المصدر السابق، ، ج٦، ص ٨٨ : انظر ايضا :
Bury, op. cit., p. 275' p. 275' cf. also : Ostrogorsky, op. cit., p. 196.

(٦) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٥٤ – ٧٥٥؛ عبد العزيز سالم : المرجع السابق، ص ٢٣٧ – ٢٣٩.

الطريقة المتبعة فى الفداء أن يقف الطرفان كما سبق القول على ضفتى نهر اللامس ويجعلوا عليه قنطرتين واحدة للروم والأخرى للمسلمين فيطلق الروم أسير ممن عندهم فيطلق المسلمون فى نفس الوقت أسيراً رومياً فإذا اقترب المسلم من المسلمين صاح الله أكبر فيرد عليه باقى المسلمين بالتكبير كذلك، ويشير فازيليف أن الروم فعلوا مثلهم فى التكبير وقد أكد ابن الاثير ذلك[١].

وقد تميز هذا الفداء أيضًا بإطلاق الروم سراح شخصية هامة جداً فى التاريخ الإسلامى وهو مسلم بن أبى مسلم الجرمى وكان على دراية كبيرة بالروم وبلادهم وله مصنفات فى أخبار ملوكهم وذى المراتب العليا منهم كما كان على دراية بمسالك وطرق الروم وأفضل أوقات الغزو والغارات عليهم ومن جاورهم من الممالك من برغان والبرغز والصقالية[٢] وغيرهم. حتى يقال أن العالم الجغرافى ابن خرداذبة استمد الكثير من المعلومات الجغرافية عن آسيا الصغرى من مسلم الجرمى وصارت معلوماته أساسًا لكل التآليف الجغرافية فى العصور الوسطى[٣].

وقد أشارت المصادر العربية أن كثيرين من الأسرى كانوا من أهل الذمة حيث لم يفرق هارون الواثق بين مسلم وغير مسلم وأفتدى الجميع ولعل

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق، ج٦، ص٨٨؛ فازيليف : العرب والروم، ص ١٧٨.

(٢) الصقالية : هم عدد من الأمم منهم النصارى ومنهم المجوس، يعبدون الشمس ولهم بحر يجرى من المشرق إلى المغرب يتصل ببحر البلغار ولهم أنهار كثيرة وعلى قدر كبير من التحضر والمهارة فى كثير من الفنون وللمزيد عنهم أنظر : المسعودى (ت ٣٤٥) أبو الحسن على بن الحسين : أخبار الزمان / الطبعة الخامسة، بيروت ، ١٩٨٣، ص ٩٢ – ٩٣.

(٣) إبراهيم العدوى : المرجع السابق، ص ٩٨.

هذا ينفى الكثير من الاتهامات التى وجهت للواثق بشأن عدم فدائه لمن لا يقول بخلق القرآن من المسلمين فإذا كان هذا موقفه المتسامح من أهل الذمة وكيف حرص على فدائهم فكيف يكون هذا هو موقفه مع جماعة المسلمين مهما كان حجم الخلاف فى الرأى معهم أعتقد أنها مبالغة من خصوم هارون الواثق لإدانته الشديدة فى قضية خلق القرآن وخلافه مع أحمد بن نصر الخزاعى وأتباعه ومؤيديه وقد كانوا كثيرين فى بغداد وسامراء[1].

أما عن مدة الفداء فقد اختلفت المصادر العربية فى ذلك فيذكر الطبرى أنها كانت سبعة أيام فى حين يذكر المسعودى أنها كانت عشرة أيام[2].

ولو حاولنا تقييم عملية الفداء نجد أن لها بعداً حضاريا عظيماً إذ أوجدت فرصة للاحتكاك الحضارى بين المسلمين والبيزنطيين وأوجدت عملية تأثير وتأثر بين كلا الجانبين، خاصة أن الأسرى لدى الطرفين كانت تتم عملية تجنيد دقيقة لمهاراتهم وقدراتهم ففى بيزنطة كانوا يوزعون على مختلف المصانع والحرف للاستفادة من خبراتهم وكانت لهم دار خاصة تسمى «دار البلاط» وتشتمل على غرف كبيرة يقيم فيها الأسرى. أما عظماء الأسرى فيقال إنها كانت لهم دار خاصة بالقرب من قصر الإمبراطور

---

(١) أنكر ابن كثير ما تردد حول موقف الواثق من الأسرى الذين رفضوا القول بخلق القرآن ، وقال أن مسألة الفداء لم يكن لها علاقة بقضية خلق القرآن انظر ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٥٥. فى حين أكدها اليعقوبى والطبرى والسيوطى وابن الاثير وللمزيد انظر اليعقوبى : المصدر السابق، ج٣، ص ٢٠٧؛ الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢١٨٨؛ المسعودى : المصدر السابق؛ ج٤، ص ٦٥- ٦٦، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٨٧.

(٢) الطبرى : المصدر السابق، نفس الصفحة، المسعودى : المصدر السابق، نفس الصفحة.

البيزنطى ليكونوا تحت رعايته وإشرافه بدليل أن عبد الله الطرسوس الذى عاد بعد ثلاثين عاما من الأسر عاد معززا مكرما متأثرا بكثير من عادات ومناسبات البيزنطيين[1].. وتشير المصادر إلى أن هؤلاء الأسرى تمتعوا بمعاملة طيبة من قبل السلطات البيزنطية واحترمت عقيدتهم ولم يكرهوا على شرب الخمر أو أكل لحم الخنزير، كما لم يتعرضوا لأى نوع من التعذيب وزاولوا صنوفا من التجارة والحرف والألعاب المرحة، وكانت تقام مباريات فى سباق الخيل بين المسلمين والبيزنطيين وكان الروم يحضرون لمشاهدة هذه لمباريات بل كان الإمبراطور يمنح الهدايا للمسلمين بعد فوزهم فى هذه المباريات، وبالمثل فقد لقى الأسرى البيزنطيون معاملة طيبة فى ديار الإسلام[2].. وأعد لهم فى القاهرة مكان خاص يسمى «المناخ» خاص بالأسرى الرجال فى حين يوزع الأطفال والنساء على الخليفة وكبار رجال الدولة[3].

وقد تطورت العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين على عهد هارون الواثق، فقد تم إرسال بعثات علمية للبحث والدراسة وتبادل الكتب والمعارف[4] مما كان له آثار حضارية متميزة لدى الطرفين.

---

(١) إبراهيم العدوى : الإمبراطورية البيزنطية، ص ٩٥؛ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى، ج٢، ص ٤١٨.

(٢) إبراهيم العدوى : المرجع السابق، ص ٩٦ – ٩٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٦؛ حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق، ج٢، ص ٤١٨؛ محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، القاهرة، ١٩٦٥، ص ١٧١ – ١٧٢.

(٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ص ١٠٦ –١٠٧؛ المقدسى : أحسن التقاسيم، ١٥٢.

وبعد ورغم أن السياسة الخارجية لهارون الواثق قد اتسمت بالاعتدال والسكينة مع البيزنطيين، إلا أن هذا لم يوقف استفحال خطر الضعف والتفكك في جسد الدولة العباسية فهذه كانت فترة أفول نجم العباسيين العظماء وزيادة تغلغل العنصر التركي وهيمنته على الواثق وسلبه كل مقاليد السلطة والسيادة داخل وخارج دولته، بالإضافة إلى ما نتج عن مشكلة خلق القرآن من آثار سلبية خطيرة ضد الواثق فلم يحرص على الجهاد ووقف معادياً لنشاط الأغالبة العسكرى ضد الروم. وفتح الباب للكثير من الفتن والصراعات، خاصة-أنه لم يعين ولياً لعهده بسبب تدخل الأتراك في هذه القضية وحسمها لصالح أخيه المتوكل بدلاً من ابنه محمد وذلك لأن المتوكل كانت أمه تركية من خوارزم[1]. أقصد أنه تضافرت على عهد الواثق كثير من العوامل التى أضعفت دولته وهزت كيانها، مما أعطى فى النهاية صورة لا تنبض بالحيوية والنشاط والاحتكاك العسكرى واستعراض القوى الإسلامية ضد البيزنطيين وهذا ليس فقط على الصعيد الإسلامى بل أيضا على المستوى البيزنطى فقد كان انغماس الإمبراطور ميخائيل الثالث فى ملذاته وشهواته له أثر خطير على تقاعس وقصور سياسته الخارجية تجاه المسلمين، فلم ترغب بيزنطة فى تفجير الحرب على الحدود الشرقية فى آسيا الصغرى وكرست جهودها ضد المسلمين فى كريت وصقلية الذ ن باتوا يشكلون خطراً جسيما على أمن بيزنطة فى حوض البحر المتوسط. بالإضافة إلى تفتت الأوضاع الداخلية فى بيزنطة وتزايد الصراع على السلطة بين

(١) وللمزيد انظر : ابن كثير : المصدر السابق، ج-، ص ٣٠٢ - ٣٠٨؛ ماجد المرجع السابق، ص ٤٣٠؛ محمد الخضرى : المرجع السابق، ص ٢٤٩ - ٢٥١.

برداس وثيوكستوس واضطراب شخصية ميخائيل الثالث وعبثه ومجونه كل هذا ألقى بظلاله على العلاقات السياسية مع هارون الواثق وفرض الصلح والسلام على الطرفين.

وفاة الخليفة هارون الواثق

توفى هارون الواثق فى ٢٣ من ذى الحجة ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م وسيطر الأتراك على أمور الدولة بصورة كاملة. وفى هذا الصدد يقول المسعودى «إن الواثق توفى وهو فى مدينة سامراء، وقيل إنه مات وعمره ٣٦ عاماً وقيل ٣٢ عاماً واختلفوا فى موته مثلما اختلفوا فى ميلاده[١].

وفى وفاته قيل إنه كان يعالج من مرض الاستسقاء وعولج بالإقعاد فى تنور ساخن فوجد لذلك راحة فأمرهم فى اليوم التالى بالزيادة في درجة اسخان التنور وجلس مدة أطول من ذى قبل فأغمى عليه وأخرج منه وصير فى مُحفة وحضره الفضل بن إسحاق الهاشمى وعمر بن فرج. ولم يعلموا بموته حتى ضرب بوجهه المحفة فعلموا أنه مات وقيل حضر وفاته أحمد بن أبى داود يغمضه ويصلح من شأنه. ودفن فى قبره فى قصره بالهارونى[٢]. وكانت خلافته خمس سنين، وتسعة أشهر وخمسة أيام[٣].

(١) اختلفت المصادر حول يوم وفاته ولكنها اتفقت فى أنه فى شهر ذى الحجة سنة ٢٣٢هـ فقيل أنه مات يوم ٦ أو ١٠ أو ٢٣ من ذى الحج سنة ٢٣٢هـ وللمزيد أنظر المسعودى : المصدر السابق، ج٤، ص ٦٥؛ الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٩٠.

(٢) ابن كثير : المصدر السابق، ج١٠، ص ٧٥٣؛ الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٩٠ – ٢٩١؛ ابن الاثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٩٢.

(٣) للمزيد انظر الطبرى : ج٥، ص ٢٩١.

وخلاصة القول فلم تكن الظروف التى ألمت بعهد الواثق يمكن أن تقلل من شأنه كآخر الخلفاء العظام لعصر القوة العباسى، فقد عرف عنه أنه كان شديد الاهتمام بالعلم والعلماء، عقد كثيراً من مجالس العلم وناقش العديد من القضايا مع جماعة الفقهاء والمتكلمين .. كان محباً للشعر والأدب مطلعاً على آراء الفلاسفة والأدباء، وكثيراً ما سأل واستفسر عن علم الطب وحضر مجلسه يوحنا بن ماسويه وجبريل بن بختيشوع وغيرهم .. وكان كثير القراءة عن الكواكب والرياح ومواقع البلدان والظواهر الجغرافية التى تسببها البحار، شغوفاً بسيرة الإسكندر الأكبر، عطوفاً على رعيته، لم يقصر فى حق العلويين بل بالغ فى إكرامهم وتعهد برد أموالهم .. واهتم كثيراً بأحوال الحرمين الشريفين وأقام الكثير من المنشآت لراحة الحجيج[1].

وبعد وفاته مباشرة يذكر الطبرى أن حضر أحمد بن داود وإيتاخ ووصيف وعمر بن فرج الزيات وأنهم أصروا على تقليد ابنه محمدا أمور الدولة وكان غلاما صغيرا فألبسوه دراعة سوداء وقلنسوة فإذا هو قصير فقال لهم وصيف «أما تتقون الله» تولون مثل هذا الخلافة وهو لا يجوز معه الصلاة. فتناظروا فيمن يولونه ... واستقر الرأى على أخيه جعفر ولم يكن قد لقب بالمتوكل فألبسوه الدراعة السوداء وعممه أحمد بن داود. وكان جعفر يقول أخاف أن يكون الواثق لم يمت فأروه إياه وهو مسجى. فقبل وبايعوه فى دار العامة ولقب بالمتوكل [2]. ولعل هذا ما يؤكد أن الاتراك فعلا لم يوافقوا على تعيين الواثق ابنه محمدا وليا لعهده فى حياته. والدليل التخبط والحيرة فيمن يلى أمر المسلمين يوم وفاة هارون الواثق. وكانت هذه هى السمة المميزة لعصر الضعف العباسى وتغلغل العنصر التركى فى أمور السياسة والحكم.

(١) ابن كثير : المصدر السبق، ج١٠، ص ٧٥٣ – ٧٥٥؛ ابن الاثير : المصدر السابق، ج٦، ص ٩٢.

(٢) الطبرى : المصدر السابق، ج٥، ص ٢٩٣.

الخاتمة

وبعد فقد حاولنا فى تلك الدراسة السريعة حول أهم حقبة زمنية فى تاريخ الخلافة العباسية فى نهاية عصرها الأول، أن نستعرض كافة القضايا التى تركت بصماتها على السياسة الخارجية للخليفة هارون الواثق مع البيزنطيين وكانت تلك الأمور السبب الرئيسى فى حالة المصالحة والهدوء وتبادل الأسرى مع بيزنطة. فقد استعرضنا تغلغل العنصر التركى فى أمور السياسة والحكم، كما تناولنا قضية ثورة بعض الأقاليم ضد الواثق، وناقشنا موقف الواثق المتشدد من كتاب الدواوين وقضية خلق القرآن، ثم انتقلنا للحديث عن أحوال بيزنطة على عهد الإمبراطور ميخائيل III وكيف كانت شخصيته العابثة الماجنة سببا فى كثير من الاضطرابات الداخلية فى دولته، وتقاعس سياسته الخارجية ضد المسلمين فى الوقت الذى نشطت فيه دولة الأغالبة ومسلمو كريت وتحملوا وحدهم عبء الجهاد ضد البيزنطيين.

كما استعرضنا رغبة الطرفين البيزنطى والإسلامى فى عقد الصلح وتبادل الأسرى، واختتمنا البحث ببعض الجوانب الشخصية لحياة هارون الواثق حتى وفاته.

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر والمراجع الأجنبية :

Theophanes (Continuates), Historia, in, C. S. H.B, Bonn,1838.

Symeon Magistre Historia, Logothet, Chronographia, In Theophanes Cont, G.S.S.H.B, ed. 1. Bekker, Bonn. 1838, pp. 1-484;

Monachus, Vita, G. Monachus, Vita Recentiorum Imperat-orum , In Theophanes Cont. C. S.H. B,(1828), p.761-924.

Leonis Diaconi, Historia, Patrologia Craecae tomus 117, Belgium.

Joannis Zonarae, opera omina, H.C.F. in Patrologiae Craecae, tomus, 135, Belgium.

Encyclopaedia of Islam,

C.M.H, Cambridge Medieval History. Vol. IV, Part 1,p.102.

Brehier, L., vei et Mort de Byzance, Paris, 1969.

Bury, H.B,History of Eastern Roman Empire,London, 1912.

Baynes and Moss, Byzantium an Introduction to East Roman Civilization, Oxford, 1969.

Gibbon, (Ed), The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, 7. vols.

Gregoire, H, Inscription Historiques Byzantines, Ancyre et les Arabs sous Michel L'ivrogne, In Byzation Revue, Tome IV, Paris, 1929, pp. 437-448.

Finlay, G., History of the Byzantine Empire, London, 1906.

Foord, E., The Byzantine Empire, London, 1911.

Jenkins, R, Byzantium, London, 1966.

Ostogosky, G, History of the Byzantine State, translated By J. Hussery, Oxford, 1950.

Vasiliev.A, History of the Byzantine Empire, Medison,1928

قائمة المصادر العربية

ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) أبو الحسن على بن أبى الكرم، الكامل فى التاريخ، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٧، ج٦.

ابن خرداذبة : (ت. حوالى ٣٠٠هـ) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله : كتاب المسالك والممالك، ليدن، ١٨٩٩.

ابن دقماق (ت٨٠٩هـ) : إبراهيم بن محمد أيدمر العلائى : الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين، تحقيق د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، بدون.

ابن رسول (ت ٧٧٨هـ) عباس بن مجاهد بن على بن يوسف بن عمر : نزهة العيون فى تاريخ الطوائف القرون، مكتبة محافظة الإسكندرية – رقم ١١٢٩ تصوير شمس.

ابن كثير (ت ٧٧٤) : الإمام الحافظ أبو الفداء بن كثير : البداية والنهاية الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٧، ج١٠.

أبو الفداء : (ت ٧٣٢هـ) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن على : المختصر فى أخبار البشر (ويعرف بتاريخ أبو الفدا) القاهرة، ١٣٢٥هـ.

ابن منظور (ت ٧١١هـ) جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب دار المعارف، ج٦.

السيوطى (ت ٩١١هـ) : جلال الدين السيوطى، تاريخ الخلفاء. بيروت، ١٩٨٦، الطبعة الأولى.

الطبرى : (ت ٣١٠هـ) : أبو جعفر بن محمد بن جرير الطبرى : تاريخ الدول والملوك، الطبعة الثانية، ٥ أجزاء ، بيروت ١٩٨٨.

القلقشندى (ت ٨٢١هـ) أحمد بن على القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا تحقيق د/ يوسف طويل، ١٤ جزء، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧

اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، ج٣٠، ص

المسعودى : (ت٣٤٦٠هـ) : أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، ج٤، بيروت، بدون تاريخ.

المقدسى : (عاش فى القرن ٤هـ/ ١٠م) : شمس الدين أبو عبد الله المعروف بالبشارى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، ليدن ، ١٩٠٦.

اليعقوبى : (ت ٢٨٤هـ) : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، تاريخ اليعقوبى، ٣ أجزاء، بغداد ، النجف، ١٣٥٨.

ياقوت الحموى : (ت ٦٢٦هـ) : شهاب الدين أبى عبد الله، معجم البلدان، تحقيق فريد الجندى، ٥ أجزاء ، بيروت : ١٩٩٠م.

المراجع العربية والمعربة

إبراهيم العدوى (دكتور) : ١- الأساطيل العربية فى البحر المتوسط، القاهرة ، ١٩٥٧.

٢- الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، الفجالة، ١٩٥١.

حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف : العالم الإسلامى فى العصر العباسى الأول، الطبعة الخامسة، القاهرة، بدون .

أحمد رمضان (دكتور) : تاريخ فن القتال البحرى فى البحر المتوسط فى العصر الوسيط، مطبعة هيئة الآثار.

أحمد الشامى (دكتور) الدولة الإسلامية فى العصر العباسى الأول، ص ١٦٩- ١٧٠.

أحمد مختار العبادى (دكتور) : التاريخ العباسى والأندلسى، بيروت.

أسد رستم : حرب فى الكنائس، بيروت ، ١٩٥٨.

الشيخ محمد الخضرى بك : تاريخ الأمم الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٠.

أومان : الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د/ مصطفى طه بدر، دار الفكر العربى، ١٩٥٦.

حسن إبراهيم حسن : التاريخ السياسى والثقافى والاجتماعى، ٤ أجزاء، بيروت، ١٩٦٤.

عبد العزيز سالم (دكتور) : العصر العباسى الأول ، الإسكندرية، ١٣٩٨.

عبد الرحمن العمرو (دكتور) : أثر الفرس السياسى ، الطبعة الأولى ١٩٧٨.

عبد المنعم ماجد : ١- العصر العباسى الأول، ٢ ج، القاهرة ١٩٧٣.

٢- العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، بيروت، ١٩٦١.

على إبراهيم حسن (دكتور) : التاريخ الأسلامى العام، القاهرة، ١٩٧١.

فازيليف : العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة، مراجعة/ فؤاد حسنين على طبعة دار الفكر العربى، بطرسبرج ١٩٠٠.

فليب حتى : العرب تاريخ موجز، بيروت، ١٩٦٤.

لويس ارشيبالد : القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) ترجمة أحمد محمد عيسى ، مراجعة محمد شفيق غبريال، القاهرة، ١٩٦٠.

محمد جمال الدين سرور (دكتور) : تاريخ الحضارة الإسلامية فى المشرق ، القاهرة، ١٩٦٥.

محمود سعيد عمران (دكتور):١- تاريخ الدولة البيزنطية، بيروت ، ١٩٨١.

٢- إدارة الامبراطورية البيزنطية للإمبراطورقسطنطين السابع، عرض وتحليل د/ محمود سعيد عمران، بيروت، ١٩٨٠.

محمّد محمد مرسى الشيخ (دكتور) : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.

مسينا

طبرمين

جبل النار

قطانية

كيفالو

بمرمة

قصريانة

لنتينى

سرقوسة — طرابنش

نوطس — طرابنس

مودكا — مازر

ميناو

دغوس — فتوحات المسلمين صقلية

بثيرة

قصريانة

ليكاتا

جرجنت

بلرم